

السخرية تواصل تداولها في " حدائق الأزاهر" لابن عاصم الغرناطي (ت 829هـ)

The satire continued deliberative circulation in "Al-Azhar Gardens"

(by IbnAsim Al-Gharnati (d. 829 AH)

محمود خليف خضير الحيايني*

الكلية التقنية الادارية/ الموصل emaf_1979@yahoo.com

بشار نديم أحمد الباججي

الكلية التقنية الهندسية/ الموصل emaf_1979@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/06/21 تاريخ القبول: 2021/07/04 تاريخ النشر: 2021/07/29

ملخص: يعالج هذا البحث موضوعاً مهماً في خطاب السخرية المرتبط بقدرته التواصلية حين حاولت التداولية أن تستعين بمبادئ متنوعة كي تعمل على تحقيق أهدافها، أو غايتها في تحقيق الفعل، فالتداولية استغلت كل إمكانات اللغة النحوية والدلالية والسياقات الخارجية للعمل على تحقيق غاياتها البراجماتية، والتي تمثلت في لغة القوة أو اللطافة، فضلاً عن أسلوب السخرية، أو الدعابة التي تعدّ مبدءاً وعنصراً أساسياً في التداولية التي تنهض على مبدء التعاون، ومبدءاً حسن التخلق والأدب، ومبدءاً السخرية، وكلّ مبدءاً من هذه المبادئ يحاول أن يتجاوز الفجوة التي يمكن أن تحصل في عملية التواصل، أو إقناع المخاطب، فعندما يحصل انتهاك لمبدء التعاون، فإنّ حسن التخلق، والأدب يعملان على ملئ هذه الفجوة، ولما كان حسن الأدب والتخلق في الأصل أسلوب برتوكولي ولباقة اجتماعية يمكن أن يتعرض لحدوث نوعاً من التجاوز أو ما يطلق عليه قلة الأدب، فإنّ مبدءاً السخرية يمكن أن يعيد اللباقة لكنّ بأسلوب آخر مجازي ويتمثل في الكناية أو التورية التي يتكئ عليها خطاب حسن الأدب والتخلق في حالة انتهاك البرتوكول الاجتماعي، كي يساعده في تحقيق ما يريد فعله، أو إيصاله لكلّ السياقات والطبقات والجماعات المفسرة المختلفة، وهو ما يمكن أن نتلمسه في كتاب حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي الذي تشكّل متن الكتاب أسلوبياً على وفق أسلوب السخرية، والعلاقة المتنوعة بين المخاطب، والمستمع التي ترتبط بالاختلاف في السياق، وحالة المتلقي.

الكلمات المفتاح: السخرية، تداولية، استراتيجية، السلم، الربح، بلاغة.

Summary:

This research deals with an important topic in the irony discourse related to its communicative ability that deliberative attempted to use various principles in order to work towards achieving its goals, or its goal in achieving the act, as deliberative exploited all the potential of grammatical language, semantics and external contexts in working to achieve its pragmatic goals, and it was Represented by the language of strength, or kindness, as well as the method of sarcasm, or humor, which is a principle and an essential element in deliberation that promotes the principle of cooperation, the principle of good morals and literature, and the principle of sarcasm, and each of these principles tries to overcome the gap that can occur in The process of communication, or persuading the addressee, when there is a violation of the principle of cooperation, good manners and literature work to fill this gap, and when good manners and creation were originally a protocol style and social grace that could be subjected to a kind of transgression or what is called lack of literature, The principle of irony can restore tact but in another metaphorical manner, which is the metaphor or pun that leans on a well-disciplined speech, and creation in case of violation of the social protocol, in order to help it achieve what it wants to do, or It connects with all the different contexts, classes, and interpretative groups, which we can find in the book Al-Azhar Gardens by IbnAsim Al-Gharnati, which was stylistically shaped according to the style of ridicule, and the diverse relationship between the addressees and the listener, which is related to the different context and the recipient.

Key words:

Irony, deliberative, strategy, peace, profit, eloquence.

1. مقدمة:

لاشك أنَّ الخطاب الذي يقدمه أسلوب السخرية والدعابة في المدونات العربية والغربية، ولاسيَّما في كتاب حدائق الأزاهر يميل في معظمه أن يكون خطابا شعبيا لا يتقيد بسلطة النحو أو الفصاحة والبلاغة، حتى إننا لو تعمقنا في هذا الظاهرة الاجتماعية ذات النزعة التي يتصف بها هذا الخطاب كونه من الأدب الشعبي الذي يمتلك قدرة عالية في تشكيل نوع من التفاعل والتواصل بين المتحاورين والمستمعين، فالضحك غريزة إنسانية، وفطرة ربانية لها إيماءات، وإيماءات جسدية، وعاطفية تعزز من مبدأ التواصل، ولما كانت التداولية تنهض على أهداف براجماتية تقوم على قوة الكلمة أو العبارة، وقدرتها التأثيرية التي تعمل على تغيير القناعات والرغبات والأفعال في المتلقي، والهدف الرئيسي الذي يرتبط بقدرة تحقيق الفعل أو القيام بها يعزز من مبدأ الاستعانة بكل الطرق والأساليب التعبيرية التي تبحث عن تحقيق الهدف الأساسي في طلب القيام بالفعل، سواء أكان بالقوة أم باللباقة الاجتماعية، أو أسلوب التأدب والحيلة أو التورية والطرفة والسخرية والدعابة، وقد حاول " جيوفري ليتش " التركيز على قاعدة السخرية في الخطاب التداولي، وهي تشكل مبدأ يعاضد مبادئ التداولية التي اختزلت في مبدأ التعاون، ومبدأ حسن الأدب والتخلق، ومبدأ السخرية التي ترتبط بعلاقة جدلية تعمل جميعها على تحقيق الهدف المركزي للتداولية .

- اشكالية البحث :

تنطلق اشكالية في البحث عن مبدأ حسن الادب والتخلق التي تعد انزياح عن الخطاب البراجماتي، فهو له دور في تحقيق التواصل ولكن عن طريق السخرية .

- فرضيات البحث :

تتطرق فرضية البحث الرئيسية التأكيد على ان مبدأ حسن الادب والتخلق هي من الخطابات التي كان لها حضور في الادب العربي ولاسيما في كتاب حدائق الازاهر .

- اهداف البحث :

ان الهدف الرئيسة من البحث هو في الكشف عن مواضع خطاب حسن الادب وتأثيره في المتلقي وكشفه عن السياق او الخطاب العام وكيفية تلقيه في ذلك العصر .

- منهج البحث :

استعان البحث بالمنهج التداولي في تحليل خطاب " حدائق الأزاهر " لابن عاصم الغرناطي.

2. المبحث الأول : السخرية تقنية بلاغية واستراتيجية تداولي:

يتداخل مصطلح ومفهوم السخرية ويتشابك مع مفاهيم تنهض على أساس الانفعال الإنساني الذي يحاول أن يمارس دوره في الترويح عن النفس، والشعور بالسعادة، فقد تقاربت مفاهيم الفكاهة ، والضحك ، والسخرية(مايكل أرجايل ، ترجمة د. فيصل عبد القادر يوسف سيكولوجية السعادة، 1993 : 9 - 12)، وغيرها في العمل على إثارة الضحك، أو جلب السعادة إلى الإنسان، فالسخرية استعداد فطري في الإنسان لا يكسبه بالتجربة، بل هو انفعال خاص يتميز به عن بقية الحيوانات(نعمان محمد أمين طه ، السخرية في الأدب العربي، 1978: 7).

واختلف في تفسير ظاهرة السخرية، والضحك، والفكاهة في المدونات الفلسفية والاجتماعية، والنفسية، فهناك من ذهب بأنها طاقة، وبعضهم عدّها ظاهرة فسيولوجية، وهناك من فسّرها تفسيراً نفسياً أو سيكولوجياً، وبعضهم عمل على المزج بين التفسير النفسي والفسيولوجي، لكنّ الفلسفة الوجودية حاولت أن تبحث عن حرية وسعادة الإنسان فرفضت هذه التفسيرات وانطلقت من مفهوم واسع لتفسيرها باعتبار أن المواقف الانسانية أكبر من كل النظريات التي يمكن أن تفسر هذه الظاهرة(نعمان محمد أمين طه ، السخرية في الأدب العربي، 1978: 32).

ولما كان الهدف الرئيس من السخرية هو الضحك، فإنه تم التفريق بين الفكاهة والسخرية، فالفكاهة ليس لها غرض أو هدف إلا الضحك، أما السخرية فإنّ لها غرضاً وهدفاً، وارتبطت السخرية بالهجاء من الناحية الوظيفية، فالهجاء هجوم مباشر على العدو، والسخرية تكون عن طريق غير مباشر(نبيل راغب، الأدب الساخر ، 2000: 44) .

ويمكن القول أنّ موضوع السخرية واسع جداً ومتداخل مع مصطلحات قريبة منه من حيث الهدف والوظيفة مثل الاستخفاف، والمداعبة، والتعريض، والضحك، والهزء، والندرة، والتهكم(حسين خريوش ، أدب الفكاهة الأندلسي ، 1982: 33).

وعلى أساس هذا التداخل ارتبطت السخرية في العصر الجاهلي بعلاقة عضوية قوية مع أغراض أدبية لاسيما الهجاء، فالصور الشعرية كانت تسخر من المهجو، وتطورت إلى التهكم، وفي العصر الإسلامي تضمن النص القرآني أسلوب السخرية من المشركين وطريقة تفكيرهم ورسم صوراً للمشركين والمنافقين ساخرة، كالصورة التي رسمها للعاص بن وائل وتصويره ببيئة مضحكة، وأصبح هناك شعراء مشهورين بالسخرية مثل الخطيب " 600-678م " وفي العصر الأموي عُرف عن جرير "ت 110 هـ " سخريته بمن تصدى لهجائهم، وفي العصر العباسي ونتيجة للتأثر بالحضارات الفارسية والهندية والسريانية أصبحت السخرية أسلوباً انصهر في البلاغة العربية، ومن أبرز الكتاب الذين عرفوا بأسلوب السخرية الجاحظ (ت 255هـ) لاسيما في رسالته "البخلاء" وبديع الزمان الهمداني "ت 395 هـ " وأبو العيلاء "ت 283 هـ"، وأبو العلاء المعري "ت 449 هـ" (محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون، 1948: 40).

وليس بعيداً عن هذه اللوحة من الأهداف البراجماتية أو التداولية في موضوع السخرية الذي ارتبط بأهداف مباشرة بالسياقات السياسية والاجتماعية والثقافية، لكن في الجانب الآخر، فالسخرية اتجهت إلى الأسلوب غير المباشر الذي أدى إلى العناية بالناحية الجمالية، واتجه أسلوب السخرية أو تكتيك السخرية إلى الجانب البلاغي الذي تم تداوله في مواضيع تم استثمارها من أجل موضوع السخرية منها الذم الذي يشبه المدح، وتجاهل العارف، والتعريض، والتورية، والكناية، والتشبيه الذي ارتبط بالحاكاة الساخرة، وهناك من عمل على استثمار السخرية سيميائياً عن طريق الصمت أو البصر، والنظر إلى الخصم، أو عن طريق المناادة بالألقاب، وتلوين الصوت، وتنغيمه أيضاً ومثل ذلك وجهها من وجوه السخرية (نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، 1978: 21). ولعل هذا التحديد البلاغي لم يمنع من أن تتحول السخرية في الوقت الحاضر أو في شعر ما بعد الحداثة إلى تقنية اعتمدت على المفارقة أو الانزياح، وجسدت السخرية طريقة يتم التعبير بها عن التمرد، وأصبحت فلسفة في الحياة، وبدأت تتحول من الجانب التجاري الذي يمكن أن نجده في المسرح الذي انصهر فيه الجانب الجدي بالهزلي متحولاً إلى تقنية موجود فيها كثير من الوصف أو تقنية السرد، أو الدراما في النص الشعري الذي عمل على تفعيل وتنوير النص الإبداعي، وأصبح المتلقي يجد فيه نوعاً

من الاستجابة مع شعر ينهض على السخرية (نبيل راغب، الأدب الساخر، 2000: 82 - 85)، وكان الأدباء الروس من الذين اشتهروا بهذه الطريقة النقدية للواقع.

3. المبحث الثاني: التداولية وقاعدة فن السخرية:

ثمة خلط وتداخل اصطلاحي ومفهومي أبعد التداولية عن حدود وتخوم الأساس العلمي الذي يتجلى في شرط التعريف الجامع المانع، فنسق تداول أو ترجمة مصطلح التداولية اتصف بالتنوع والاختلاف من حيث الاتفاق على مصطلح واحد، ومدونة الخطاب النقدي والفلسفي جمعت دلالات اصطلاحية كثيرة للمصطلح منها التداولية، والذرائعية، والنفعية، والسياقية، والمواقفية، وعلم المقاصد، والبراجماتية، وسلة المهملات. وهذه المجموعة من المصطلحات حاول كل خطاب نقدي أو فلسفي أن يجد لها المصوغات المعرفية والمفهومية في اختيار كل مصطلح، فهناك من وجد أن البراجماتية مصطلح فلسفي واسع وعام يرتبط بالجانب التصوري والنظري والذي يخالفه مصطلح التداولية ممثلاً منحاً أدبياً يرتبط بالمنهج والتطبيق، أما المصطلحات السياقية والذرائعية والمواقفية فإنها تداخلت مع علوم ومصطلحات ومفاهيم ترتبط بالجانب الإنساني السلوكي والفلسفي بعيداً عن البعد التداولي اللغوي، وعلم المقاصد الذي جسّد بعداً واحداً من آلية عمل التداولية ألا وهو مقصدية المتحدث وهو ما يمثل منظومة غير كاملة لفهم اشتغال أطراف الخطاب التداولية (، عزت محمد جاد ، نظرية المصطلح النقدي، 2002: 368 - 372 .) .

فلا غرابة إذن في غياب الوعي بأنّ التداخل الاصطلاحي منبعه وأصله التداخل المفهومي، واختلاط الجينات وتشويها تاريخياً عن طريق التزاوج والتناسل والانزياح مع العلوم الإنسانية الأخرى، وفي ضوء هذا التشابك المعرفي والسيرورة التاريخية وحياة هذا المفهوم العملي أو البراجماتي ، فإنّ هناك تعاريفاً كثيرة تنطلق جميعها من فكرة التواصل والمقصدية، واستعمال اللغة ودور السياق، وعُرفت التداولية على أنّها " مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية " (فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، التداولية من أوستن إلى غوفمان، 2007 : 18)، وهي كذلك " الدراسة التي تُعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية

التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والأحاديث البشرية "(أوستن ، ترجمة عبد القادر قنيني ، أفعال الكلام العامة ، كيف ننجز الأشياء بالكلام ، 2009 ، : 36 ،) ، ورُصد تعريف آخر لها هو " دراسة تَتم بالغة في الخطاب، وتنظر في الموسميات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي " (عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، 2004 : 55 .)، وهناك من عرّفها بأنها " هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم، أو هي دراسة المعنى السياقي، أو هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال، أو هي دراسة التعبير عن التباعد النسبي " (جورج يول ، ترجمة قصي العتاي ، التداولية ، ، 2010 : 19 - 20 .)، وعرّفها بعضهم بأنها " العلاقة بين اللغة والسياقات التي تتجلى فيها " (فرانثيسكون يوس راموس، مدخل إلى دراسة التداولية، 2014: 30 .) ، وعرّف "فان ديك" الخطاب التداولي بأنه " الخطاب الذي يهتم بالعلاقات المطردة بين بنيات النص والسياق " (فان ديك ، النص والسياق ، 2000: 275) . وبناء على ما تقدم فإننا يمكن أن نتبنى تعريفًا نجده الأقرب إلى روح التداولية ولاسيما ما يخص هذه المقاربة التي ترتبط بموضوع السخرية، فالتداولية هي استعمال اللغة في المواقف الاجتماعية المختلفة على وفق مقتضيات حالة المتكلم ووضعه الاجتماعي (صابر الحباشة ، التداولية والحجاج ، 2008 : 44 .).

ثمة حقيقة لا بد أن نشير إليها في التداولية أنها قائمة على مبادئ وقواعد، وأبرز مبدأ في المحادثة ينهض على أساس أن مجهود المحادثة تعاوني بالدرجة الأولى، إذ يجب عن طريقه أن يتم تحقيق المحادثة التداولية أهدافا وأغراضا لا بد أن يبلغها المتحدثان، فمعقولية الحديث والقضايا التي تتضمنها الملفوظات تتبلور حول الصدق والحقيقة، وبذلك نجد أن الجمل الملفوظة في الأدب بصورة عامة تحاول أن تقوم على أسس خلقية واجتماعية ومقصدية تداولية ترتبط بمقومات الحقيقة والصدق والوضوح والتجسيد الذي يفهمه المتلقي، وتُلح النظرية التداولية على أهمية المعطيات السياقية وتعدّها من شروط نجاح اشتغال الأعمال اللغوي، لأنّ الفكرة الأساسية لمبدأ التعاون في منظومة

الإجراءات التداولية تقوم على أساس أنَّ المتخاطبين عندما يتحاوران إنما يقبلان ويتبعان عددًا معينًا من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل .

والمبدأ الأساسي هو مبدأ التعاون، فهدف اللغة وحالة التواصل المستمرة تركز على قدرة اللغة على تشكيل استجابة تفاعلية تداولية ترتبط بهدف لغوي مشترك بين المرسل والمرسل إليه، وبدون هذا الهدف التداولي اللغوي، فإنه لن يكون هناك تواصل، ونتيجةً لإستراتيجية التأثير التي يتبناها الأدب فإنَّ قواعد أو معايير الحادثة الناجحة والمقبولة من الطرفين - المرسل والمتلقي تحتاج إلى قواعد تعاونية إذا توافرت، فإنَّ المتلقي يستجيب للرسالة الإخبارية التي يريد أن يوصلها المتن الأدبي (فرانثيسكون يوس راموس، مدخل إلى دراسة التداولية، 2014 : 67 - 84). ولذلك أكَّد الخطاب التداولي على قواعد الحادثة، والتعاون بين المتحاورين وهي:

- 1 - الكم : بأن نقول ما هو ضروري بالضبط ولا نزيد أكثر من الضروري .
- 2 - الكيف : نقول ما ينبغي على أحسن وجه أي على أساس النزاهة والمعلومات الكافية والوضوح.
- 3 - النوع أو الجهة : محاولة أن تجعل قولك صحيحًا، وحقيقياً، و التكلم بوضوح وبالببرة الملائمة.
- 4 - العلاقة أو الإفادة : قول أشياء مفيدة للتفاعل، أشياء لها علاقة بالحادثة، (جيوفربليتش، ترجمة عبدالقادر قنيني مبادئ التداولية ، 2013، : 17 - 18).
- 5 - الملاءمة : هو الالتزام بما هو ملائم في أقوالك، أي في إطار الأخبار التي تسترعي انتباه المستمع، والتي تعدُّ هامة بالنسبة له .
- 6 - اللطف : وهي قاعدة اللطف، أو كن لطيفًا ولبقًا اجتماعيًا في التعامل (العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، 2011: 66).

ولابد من التنويه إلى أنَّ بعض الباحثين أشاروا إلى أنَّ هذه القواعد يمكن أن يحدث بها نوع من الانتهاك أو الإخلال، ولاسيَّما مبدأ التعاون الذي يؤدي إلى سوء الفهم والغموض في الحادثة (العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، 2011: 100)،. لكن لا يمكن عدَّ مبدأ التعاون

وحده عند "جرايس" الذي يقوم بالدور التواصلي، بل هناك مبادئ أخرى مثل حسن الأدب والتخلق، ومبدأ السخرية، والتفاعل بين هذه المبادئ يقوم على أساس الاختلاف، والتماثل، فمبدأ التعاون ومبدأ حسن الخلق يجريان في المجتمعات على نحو متغاير في الثقافات المختلفة أو الجماعات اللغوية في المواقف المجتمعية المتباينة بين الطبقات الاجتماعية المتعددة، فالأوصاف التداولية تتصل في نهاية الأمر بالشروط المجتمعية، فالمقبولية الاجتماعية في بعض الأحيان تتغلب على مبدأ التعاون، و مبدأ الأدب والتخلق في بعض المجتمعات يكون تقديره أعلى من مبدأ التعاون في بعض المواقف، وشكّل مبدأ الخلق والأدب مع مبدأ السخرية أو التهكم مكملاً أو إضافة لمبدأ التعاون، فمبدأ التعاون في الأساس له وظيفة تقوم على تنظيم ما نقوله، الذي يسهم في فعل الكلام أو في دفع غرض الخطاب، غير إنه يمكن الاحتجاج بأنّ مبدأ اللطف والأدب يوجد له دور تنظيمي مهم وعالٍ كونه يحافظ على التوازن الاجتماعي، وعلى علاقات الصداقة، ففناة التواصل تتوقف عندما لا تكون مهذباً ومتعاوناً في الخطابة، ولقد ذهب "جرايس" إلى أنّ الإنسان - ولكونه مؤدباً- فهو غالباً ما يواجه التعارض بين مبدأ التعاون ومبدأ الأدب واللطف حتى يتوجب عليه في أحيان كثيرة أن يختار كيف يتعامل مع أحدهما على حساب الآخر، ومبدأ السخرية في الأصل يدعم مبدأ اللطف والتهذيب، فمتى كان الإنسان ساخرًا استعمل مبدأ الأدب لتدعيم مبدأ التعاون على وفق تورية أو انزياح على وجه خفي .

ويمكن القول أنّ مكملات مبدأ التعاون من حيث مبدأ التأدب واللطف، ومبدأ السخرية لا تعمل إلا في حالة انتهاك أو تميش إحدى القواعد التي يقوم عليها مبدأ التعاون، فتراجع قاعدة الكم والكيف تعمل على تنشيط دور مبدأ الأدب واللباقة، وإنّ تجاهل اللباقة وتراجعها يقوي الاستعمال غير الاجتماعي للغة، أو ما يطلق عليه قلة الأدب التي تخالف قاعدة الكم والكيف التي يمكن أن تعدّ السخرية إصطناعاً لعدم الأدب أو تنشيطاً للكذب بقوة التهكم.

والسخريةُ تتحقق عن طريق الإيحاء والتلميح، فقاعدة السخرية تحتل مكانتها إلى جانب مبدأ التعاون، ومبدأ حسن التأدب في الخطابة التفاعلية، غير أنَّ هذه القاعدة تستند إلى هذين المبدئين، ذلك أنَّ مبدئي التعاون والتخلق يمكن أن ننظر إليهما كأهمَّ مؤديان لوظيفة ما عن طريق الإحالة المباشرة إلى دورهما الذي يعزز التواصل التفاعلي على المؤثر، لكنَّ قاعدة التهكم تتصف بالاختلال الوظيفي، فإنَّ كان حسن اللباقة يعزز الميل نحو الكياسة، فالتهكم والسخرية تتجاهلان حسن التصرف، وتقوي الاستعمال غير المجتمعي للغة، وإذا كان الصدق أو الكم والكيف يعززان مبدأ التعاون، فإنَّ السخرية والتهكم يقومان على الإيحاء والتلميح والمبالغة والتورية والإيجاز وتتصف بأنها غير جادة (، جيوفيري ليتش ، ترجمة عبد القادر قنيني، مبادئ التداولية 2013: 139 - 147) . ، ولكي نحدد مستويات أسلوب السخرية في "حدائق الأزاهر" فإننا سنحاول إجراءً اجتهادياً يعتمد الاستعانة بأساليب اللباقة والأدب الثالث: سُلَّم الخسارة والريح ، والسُلَّم الاختياري، وسُلَّم تدرج الأسلوب المائل على وفق معادلة يمكن عن طريقها أنْ نكشف بأنَّ الأقل تخلقا والأقل تأدبا في سُلَّم اللياقة، وحسن الأدب والتخلق يمكن أنْ يتحول بواسطة أسلوب أدبي جميل أو ساخر ومتهكم إلى أسلوبٍ مقبول اجتماعياً يحقق نوعاً من التوازن الاجتماعي .

3- المبحث الثالث: حدائق الأزاهر ومستويات السُلَّم التداولي:

في بداية اختبار مستويات سُلَّم اللباقة وحسن التخلق والأدب أو قلة الأدب في أسلوب السخرية في متن حدائق الأزاهر، فإنه لا بد أنْ نحدد في البداية موضوع الكتاب وأهدافه وغاياته البراجماتية التي ترتبط بروح العصر، وما تم استثماره في هذا الكتاب من حيث التأثير على المتلقي أو طبقات الجماعات المفسرة المتنوعة التي تأثرت بخطاب هذا الكتاب، فالخطاب العام لهذا الكتاب تجلّى في كونه يحاول أن يقدم خلاصة للثقافة العربية في الأندلس في نهاية الوجود الإسلامي فيها، فهو يمزج بين الثقافتين الشعبية والرسمية، و الهدف العام من هيمنة الثقافة العامة في متن الكتاب ممارسة دورها الكبير في إرضاء نزعات الناس وإشباع آمالهم وأذواقهم ورغباتهم بلغة راقية فيها التهذيب

والتعليم والترقيق والموعظة والنادرة المستملحة، و تخلل متن الكتاب تنوع في الأساليب والغايات والأهداف، ففيه الآية الكريمة والحديث النبوي والبيت الشعري والحكمة والمثل السائر، وكل هذا جاء رغبةً من الكاتب في مساعدة الناس على التفاعل والإقبال بعيداً عن تنوع ثقافتهم، وبهذا يحقق التواصل المرتبط بالجانب التحفيزي، ويخلق حالة من الاستجابة الدائمة للنص، فالأدب الشعبي وأسلوب السخرية يشغل على واقعية اللغة التي تقاس بما يرتبط بالمواقف من النوادر والأمثال باللغة العامية (إبنعاصم الغرناطي، تحقيق أبوهمام عبد اللطيف عبد الحليم، المكتبة العصرية حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر، 1998م : 8 - 22)، فالهدف والغاية هي تدعيم الجانب التواصلية الذي ينطوي على تنوع أسلوبية وموضوعية أطلق عليه الكاتب حدائق الأزاهر، والحديقة تنطوي على تنوع واختلاف تساعد في راحة النفس وتسليتها .

ولكي نربط الأفعال الكلامية الساخرة بأنواع حسن الخلق والأدب أو الأقل تخلقا والأقل أدبا، والتي هي في الأساس غير متناظرة وغير متجانسة، فالسخرية- أدبا- عند مجموعة من المتلقين قد تكون مخالفة للأدب أو أقل أدبا عند جماعة أخرى حسب الطبقات الاجتماعية، واختلاف الأذواق وتعليل قواعد السخرية، أو صناعة قلة الأدب بالضبط كونها تفسر- مثلاً- عدم التناظر ونتائجه بطرق ماثلة أو غير مباشرة، وقبل كل شيء فإننا سنفسر هذا المبدأ بالإحالة الى أسلوب الأدب الساخر في متن حدائق الأزاهر لأبن عاصم الغرناطي، وما اشتملت عليه من فنون السخرية، وقاعدة "فن السخرية"، تشير إلى التصرفات التي ينبغي أن ينجزها المخاطب والمتكلم على التوالي، ويمكن النظر إلى مقدار ما يحصله المخاطب، والمتكلم من حيث ربح أو خسارة المتلقي، وعلى هذا الأساس فإنه يمكن أن يبرز سُلّم الربح والخسارة في متن الحدائق في ثلاثة مستويات أو مراتب تتناسب مع حسن التأدب أو قلة الأدب في خطاب السخرية بموقف كلامي، وهي على الشكل الآتي :

أ - سُلّم الخسارة والربح :

يشتغل هذا السُّلَم على مقدار الريح والخسارة لغرض التأثير على المتكلم أو المخاطب، والتي تقوم على خسران المخاطب أو ربحه على وفق كونها سخريةً أقلّ تخلّقا أو أكثر تخلّقا، ولو أردنا أن نحدد مستوياتها في الحديقة الأولى في كتاب حدائق الأزاهر في موضوع المجاوبة البديهة والمخاطبة المرضية في الباب الأول وفي مُسكتا الجواب، ومفحما لخطاب والتي تمثلت مستويات الأسلوب على وفق الآتي (جيو فيري ليتش ، ترجمة عبد القادر قنيني، مبادئ التداولية 2013: 143) ..

خسران للمخاطب أقلّ تخلّقا ↑ ↓ أكثر تخلّقا ريح للمخاطب	1- قال " وقال رجل لجارية أبيه :يا زانية، فقالت : لو كنت كذلك لجنّبتاً خرمثلك . "(إبنعاصم الغرناطي، 1998 : 60). 2 - قال "رجلا امرأته :وكان قبيحاً :إنّي أتمسأ نأربابليس، قالتله :أنا أريكه، قال : وكيف ذلك، فأخرجتله امرأة، وقالتله :أنظر الوجهك." "(إبنعاصم الغرناطي، 1998 : 54). 3- قال معاوية أيضاً لابن عباس رضي الله عنه : أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال لها بن عباس : وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائرکم." "(ابن عاصم الغرناطي، 1998 : 53)
---	---

يتجلى في المقطع الأول مبدأ خسران المخاطب عن طريق الأسلوب الأقلّ تخلّقا، لأنّ المخاطب سخر من جارية أبيه واتهمها بالزنا، فكان جواب الجارية وردة فعلها على هذه السخرية من جنس أو نوع الكلام الساخر؛ لأنه ربما يكون هو أيضا ابن جارية في الأصل، لذلك قالت لو "كنت كذلك لجنّبتاً خرمثلك" وهنا حدث خسران للمخاطب، ممثلة نوعا من الأسلوب الأقلّ تخلّقا، لأنّ السخرية كانت اتّهاماً طال الشرف والعفة، حتى وأن كانت في الأصل من طبقة الجوّاري لكنها لم تستسغ سماع هكذا سخرية أو كلام، أما في المقطع الثاني فهو يُجسّد سخرية بين المرأة وزوجها عندما أراد أن يرى إبليساً، ولعلّ هذه السخرية في الحقيقة كانت تلميحا مقصوداً منه لوجه زوجته، لكنّ

ذكاء زوجته حولت الشتيمة والانتقاص إلى دعاية فأخرجت لهما، وقالت له: أنظر الوجهك فكان هذا نوع من تقبل المخاطب لجوابها، فأصبح أسلوبا مقبولا أخلاقياً من باب المزحة بين المرأة وزوجها، وهذه المزحة أو المداعبة غير مقبولة أخلاقياً بتشبيه الإنسان بالشیطان، لكن السياق العام والفضاء الأسري والعلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة التي تقوم على أساس الألفة والتقارب والحميمية ساعدت على تحويلها إلى سخرية مقبولة اجتماعياً. وفي المقطع الثالث كانت هناك عبارة سخرية في الحديث الذي جرى بين معاوية وابن عباس -رضي الله عنهما- محددة بنقطة يتدرج فيها سلم الربح والخسارة على ضوء خصوصية العلاقة، فالمقياس التاريخي للأحداث هو السياق والعلاقة المتوترة بين معاوية وبني هاشم، وما هو معروف في متون التاريخ من الفتنة التي وقعت بين معاوية والإمام علي " رضي الله عنه " فالتمليح والإيماء والإشارة التي تأسست بين سخرية ركزت على الجانب البصري من قبل معاوية، والإجابة عليها من قبل ابن عباس إرتكزت على جانب البصيرة، فالمفارقة بين عمى الأبصار، وعمى البصائر هي مقارنة بين الحس والعقل، وهنا أصبح سلم التدرج في الربح والخسارة يقوم على ربح للمخاطب أكثر تخلقا في رده على معاوية، لأن الإجابة البديهة والمخاطبة المرضية مارست دورها الكبير لأنها مسكتة الجواب، ومفحمة الخطاب، لأن ابن عباس كان معروفا بالذكاء والخطابة والحكمة، فضلا عن كونه ترجمان القرآن، وهذه المزحة والمداعبة لم تنه علاقة معاوية مع ابن عباس "رضي الله عنهما" فكان هذا ربحاً للمخاطب مع أنه أكثر تخلقا.

وإذ انتقلنا إلى السلم أو المستوى الثاني الذي يقوم على قدرة الأسلوب الساخر في تحقيق مبدأ التعاون، ومبدأ حسن الأدب والتخلق، ومبدأ السخرية نتلمس تفسيرات أخرى.

ب - السلم الاختياري الذي ترتبت فيه أفعال الكلام تبعا لمقدار الاختيار الذي يسمح به المتكلم للمخاطب.

إن العلاقة التي يمكن أن نتلمسها في الاستراتيجية التداولية تقوم على أسس جدلية تتشكل بين مبدأ التعاون الذي يستثمر كل قدرة الكلام أو استعمال الكلام في تحقيق إنجاز الكلام، لكن انتهاك هذا الاستعمال المتحقق والمنجز يمكن أن يكون على حساب المقتضيات الاجتماعية والطبقية، فليس الأكثر تعاوناً في الأصل يمكن أن يكون الأكثر تخلقا، لأن ما هو مقبول اجتماعياً لا يمكن أن يكون

مشروطًا بقواعد النحو أو الاستعمال الإنجازي للكلام، لكن في بعض الأحيان عندما يكون هنالك نوع من تحول الخطاب من خطاب حسن الخلق والأدب إلى رسالة يمكن أن تصل عن طريق أسلوب الأقل أدباً أو بالسخرية والدعاية، فإنها تمثل الانحراف المقبول اجتماعياً الذي يمكن أن يحقق كلَّ معادلات التعاون، وحسن في حدائق الأزاهر على وفق الآتي (جيويفري ليتش ، ترجمة عبد القادر قنيني، مبادئ التداولية 2013: 144): الخلق ، والأدب ، ومبدأ السخرية، التي تجلت في:

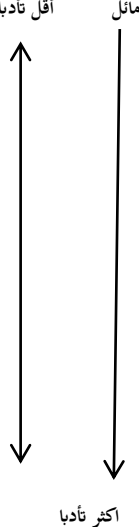
مبدأ التعاون	مبدأ حسن الخلق والأدب	مبدأ السخرية
الباب الأول في ترويح الأرواح بمستحسن المزاح كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح، ولا يقول إلحاقاً. فمن ذلك قوله لإحدى عماته: إنَّ الجنة لاتدخلها عجوز، فلما جزعت من ذلك قال لها: إنَّ الله يخلقهن يوم القيامة شواب أبكاراً" (إبناصم الغرناطي، 1998: 131).	متحقق مبدأ التعاون	سخرية مقبولة قائمة على بلاغة وبشرى للمرأة وتقديم معلومة
الباب الثاني في المضحكات الحسنة، الخفيفة على الأسننة سمع أعرابي قيام الليل، ومافيه من الأجر، قال: وأنا أقوم في الليل مراراً ، قيل : وماتصنع؟ قال :أبولو أرجع" (إبن عاصم الغرناطي، 1998: 133).	انخفاض في تحقيق مبدأ التعاون	سخرية تكشف سداجة وعفوية الأعرابي
في المضحكات المستملحة وإن كانت ألفاظها مستقبحة وعد العرجى امرأة تزوره في متنزهه فجاءته على حمارة ومعها جارية، وجاء العرجي على حمار، ومعه غلام، فواقعهما، وخرج، فرأى الغلام على الجارية، والحمار على الحمارة ، فلما نظر الحال قال : هذا يوم غابت فيه عداله" (إبن عاصم الغرناطي، 1998: 149).	مبدأ التعاون غير متحقق	سخرية تكشف عن فعل اجتماعي غير أخلاقي

تجسدت في المقاطع السابقة العناية و التركيز على القدرة الاختيارية للكلام الذي يُحقق المقبولية الاجتماعية، وتقدم مستوىً عاليًا من المعرفة أو القدرة على التأثير والسخرية ، فمزحة الرسول - صلى الله عليه وسلم- التي لم تنتهك مبدأ التعاون لإنها قائمة على الصدق والوضوح واللباقة الاجتماعية، وعبرت عن نوع من الطرافة، والمداعبة التي لم تجرح الإنسان الذي مازحه الرسول "صلى الله عليه وسلم"، وهو ما يمكن أن نكتشفه في المقطع الثاني، فالسخرية تقدّم في المقطع الأول معلومةً دينيةً صحيحة، لكن في جواب الأعرابي تحولت إلى سخرية وتهكم ارتبطت بسذاجته وعفويته، لأنها ركّزت على فعل القيام الذي يحققه، لكنّ الهدف أو الغاية الرئيسة كانت لديه مجهولة، ليطم الإفصاح عنها كونه كان يقضي حاجته، وهي وإن كانت نابعة عن سذاجة وعفوية لكنها أقلّ تخلّقا، و يحاول المقطع الثالث أن يهبط بالنص إلى طبقة اجتماعية محددة تتقبل الكلام القبيح، فهي لم تحقق مبدأ التعاون، ففيها نوع من المبالغة، وبعيدة عن النزاهة والإفادة والملاءمة واللفظ الاجتماعي، فهو مثّل إفصاحا عن الفعل القبيح والفاحش بألفاظ مستقبحة تكشف عن فعل غير أخلاقي، لكنّ الانزياح الأسلوبي المائل الذي قدمه أسلوب السخرية عمل على جعلها مقبولة، فالمزاح يمكن أن يجري لرفع درجة الأدب فيها عن طريق أسلوب التورية، والكناية التي تأخذ طابعا من السخرية كي تكون مقبولة اجتماعيا ولا يحصل فيها خسارة للمخاطب .

ت - سلّم تدرج الأسلوب المائل وهو ما تكون فيه أفعال الكلام من وجهة نظر المتكلم مُرتبةً باعتبار طول الطريق (بالنظر إلى الوسائل - تحليل الغايات) الرابط لفعل كلامي إلى أغراض أفعال كلامية أخرى .

تمثل هذه الطريقة أسلوبا خاصا في الحصول على سخرية تحافظ على عنصر حسن الأدب وتكون من الاستعمال غير المباشر، ويطلق عليها في التداولية: الكلام المائل الذي يكون أكثر تأدبا لكونه ممتزجا بالأسلوب البلاغي و الانزياح والسخرية، والتي ترفع قدرة وقوة الكلام، و تكون على

خطة مائل يتجه إلى الضعف كلما قلّ جانب التورية أو الانزياح ، وعلى وفق الآتي (جيوفيري ليتش ، ترجمة عبد القادر قنيني ، 2013 : 144) :

أقلّ تأدياً مائل أكثر تأدياً 	وكتب علي بن الجهم إلى قينة، كان يعشقها، ويكلفها: خفي الله في منقذ تبلت فؤاده وتيمته دهرًا، كأن به سحرًا دعي الهجر لا أسمع به منك، إنما سألتك أمراً، ليس يعرى لكم ظهراً فكتبت إليه : صدقت، جعلت فداك، ليس يعرى لنا ظهراً، ولكنه يملأ منه بطناً" (إبن عاصم الغرناطي، 1998 : 165). الباب الثالث في أخبار المغفلين وأهل البله وما يضحك عن المجنونين، ومن لا عقل لهم: سمع أبو العيناء مغنياً غير محسن، فقال: صدق الله: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" (إبن عاصم الغرناطي، 1998 : 224). وقال نصر بن سيار الأعراي: هل أصابتك تخمة؟ قال: أما من طعامك، وطعام أبيبك، فلا" (إبن عاصم الغرناطي، 1998 : 323).
---	--

لابد من التنويه التنويه إلى أنّ استعمال الاستراتيجية المائلة أو المنزاحة في أسلوب السخرية تشير في بعض الأحوال إلى أدبٍ جم، لأنه يحاول أن يُحقق فعل الإنجاز بأقل كلفة تعبيرية ، إي أنها تكون أكثر أدبا، لأنها تعتمد على الكلام المنزاح أو المائل، والذي يمزج معه استثمار السياق الاجتماعي، وتكون المعلومة ذات نزعة تعبر عن مقبولية المخاطب لها ؛ لأنها لا تجرح مشاعره، ففي المقطع الأول أراد عليبنا لجهم أن يُعبر عن مدى عشقه لها محاولاً أن يوضح حبه العذري، لكنّ جواب القينة كان يحمل نوعاً من الكناية، والسخرية عبّرت عن قلة الأدب حين عبّرت عن حاجتها إلى فعل فاحش، وهو ما يخالف المقطع الثاني الذي وجدناه عند أبيالعيناء حين سمع مغنياً غير مُحسن الصوت، فكان الجواب

متناسا مع الآية القرآنية التي أضفت نوعا من الامتنصاص والتحوير والاجترار التي حوّلتها إلى نوع من السخرية، لكن فيه نوعٌ من التأدب والخلق في التعبير عن صوته غير الجميل، أما المقطع الثالث فكان أكثر تأدبا في طلب الأعراي من نصر بن سيار أن يكون كريما معه في الطعام، وهو طلبٌ ظاهره سخريةٌ ومزحةٌ لكنه عبّر عن مدى ذكاء الأعراي بأسلوب كنائي أو مائل في طلب المزيد من الكرم، والعطاء والضيافة له .

4 - خاتمة:

يشير هذا البحث إلى أن الانصهار بين مبادئ، وقواعد التداولية التي حاولت أن تستغل كل قوة خطاب الانجازية لأجل التأثير أو فرض فعلٍ يتحقق في المجتمع، وكتاب " حدائق الأزاهر لأبن عاصم الأندلسي " يمكن أن نضعه في خانة جنس، أو أسلوب الأدب الشعبي الذي راعى طبقات الجماعة المفسرة ومقام الحال، وقدرة السخرية في التأثير أو فضح الأوضاع الاجتماعية، أو تقديم خطاب إنجازي يكون فيه حال المخاطب هو المهم من حيث العناية في عدم خسارته وإبقاء التواصل معه، فكان اللطف يتمثل في خطاب السخرية في هذا الكتاب، فالقدرة التواصلية عملت وفق مستويات كثيرة من حيث التوافق الكامل بين المبادئ التداولية: التعاون، وحسن التخلق، والسخرية ، التي تجلّت في دعابات الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو في ما نجده من القدرة والقوة الخطابية في أسلوب التورية، والكناية التي تمارس دورا رئيسا في التأثير وإقناع المخاطب كي يساعده في تقبل الكلام القبيح والاستجابة له والعمل على عدم خسارة المخاطب، لأن لكلٍ مقامٍ مقال، كما يمكن القول أن خطاب السخرية اشتغل وفق سياق بعيد عن اللغة وقواعدها، فالمقبولية الاجتماعية هي المعيار في تحديد مقبولية خطاب السخرية، وهو يتنافى مع الأدب الرسمي الذي ينهض على تقديمه المقبولية النحوية، أو القول الفصيح على حساب المقبولية الاجتماعية ، وثمة بعد تداولي يتجسّد في حسن الأدب في سياق اجتماعي، أو في مخاطبة المتلقي وربما يكون قلّة أدبٍ في سياق اجتماعي آخر،

أو متلقيًا آخر من غير الطبقة أو المركز الاجتماعي، فشرط الاستعمال أو النحو التداولي في السخرية هو الذي يحدد كونها صحيحة أو غير صحيحة ، فالسياق والاستعمال والمقام محددات نحوية تواصلية، فالإقناع وعدم خسارة المخاطب هو الهدف الرئيسي من التداولية التي تم تحقيقها في كتاب حدائق الأزاهر لابن عاصم الأندلسي بأسلوب السخرية والتهمك .

5. قائمة المراجع:

- 1 - ابن عاصم الغرناطي، تحقيق أبو همام عبد اللطيف عبد الحلیم، حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والامثال والحكايات والنوادر ،المكتبة العصرية للطباعة والنشر،بيروت، لبنان، ط1 ، 1419هـ، 1998م .
- 2 - اوستين ، ترجمة عبد القادر قبنيتي، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام ، ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1991 .
- 3 - جورج يول ، التداولية، ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، ط1 ، 2010 .
- 4 - جيوفري ليتش ، ترجمة عبد القادر قبنيني ، مبادئ التداولية ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2013 .
- 5 - حسين خريوش ، أدب الفكاهة الأندلسي : دراسة نقدية تطبيقية، [منشورات جامعة اليرموك](#)، الأردن ، 1982، إربد، الأردن .
- 6 - صابر الحباشة ، التداولية والحجاج، مدخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر ، دمشق ، ط1 ، 2008 .
- 7 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط1 ، 2004 .
- 8 - عزت محمد جاد ، نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2002 ، مصر .
- 9 - العياشي إدراوي، الإستلزام الحوارية في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط ، ط1، 2011 .

- 10 - فان دايك ، ترجمة عبد القادر قنيني ، النص والسياق ، إستقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2000 .
- 11 - فرانثيسكو يوس راموس ، مدخل إلى دراسة التداولية ، مبدأ التعاون ونظرية الملازمة والتأويل ، دار نيور للطباعة والنشر ، بغداد ، ط1 ، 2014 .
- 12 - فيليب بلانشيه ، ترجمة صابر الحباشة ، التداولية من أوستن إلى غوفمان ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط1 ، 2007 .
- 13 - مايكل أرجايل ، ترجمة د. فيصل عبد القادر يوسف ، سيكولوجية السعادة ، مراجعة شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، ط1 ، 1993 ، الكويت .
- 14 - مجموعة مؤلفين، تحرير بشرى البستاني ، التداولية في البحث اللغوي والنقدي ، مؤسسة السياب ، لندن ، ط1 ، 2012 .
- 15 - محمد محمد حسين ، المهجاء والمهجاءون في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، 1948 ، مصر .
- 16 - نبيل راغب ، الأدب الساخر ، المجلس الأعلى للثقافة ، وزارة الثقافة، 2000 ، مصر .
- 17 - نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية، ط1 ، 1978، مصر.